٤ - الأمير والحصان

كان الملك المقدونى فيليب يستمتع بانتصاره على مملكة " إيليريا " Illyria سنة ٣٥٦ ق . م ، عندما وصل إليه أحد رجال مقدونيا وأنبأه بمولد ابنه الإسكندر ، وبأن أحد جياد الملك فيليب قد فاز بالجائزة الأولى فى سباق الخيول بالألعاب الأوليمبية ، وهكذا ازدادت سعادة الملك فيليب لهذه الأسباب الثلاثة فى وقت واحد : نصر فى المعركة ، وطفل يرث العرش ، والجائزة الأولى فى سباق أوليمبى لحصان الملك .

وكان الملك المقدونى فيليب مولعا بخوض المعارك والانتصار فيها ، كما كان مغرما بشراء أفضل الخيول من أقوى سلالات الخيول وأكثرها نقاء ، وكان يدرب على ركوبها فرسان جيشه الذى ازداد فيه عدد الفرسان فوق ظهور الخيول وبأيديهم السيوف والرماح الطويلة مما كان يكفل الانتصار للملك فيليب فى المعارك المتتالية التى كان يخوضها ، إذ كانت الجيوش التى تضطر إلى الحرب ضد جيشه تعتمد على جنود المشاة فقط ، وكان الملك فيليب هو أول من أدخل تشكيلات الفرسان الذين يحاربون فوق صهوات الجياد فى تشكيل القتال لأول مرة فى تاريخ اليونان قبل الميلاد . كما كانت الرماح التى يستخدمها جنوده أطول من أى رماح فى أى جيش آخر .

وفور رجوع الملك فيليب من أى معركة إلى عاصمة مملكته " بيلا Pella " لم يكن يخلد إلى الراحة ، بل كان يدرب فرسانه وجنوده على ركوب الخيل وترويض الخيول الجديدة التى كان يحرص على شرائها من أسواق بيع الخيول ، كما كان يدرب المشاة على تطوير فنون القتال .

وذات صباح ، بعد أن علت الشمس فى كبد السماء ، كان الإسكندر ابن الملك فيليب قد غدا صبيا فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان متوسط الطول ،

أشقر الشعر، مستقيم الأنف ، أزرق العينين ، جميل المظهر ، وكان هذا الصبى المهيب المنظر رغم حداثة سنة يقف فى شرفة القصر الملكى يرقب بشغف كبير مجموعة من الفرسان وهم يقومون بترويض مجموعة من الخيول الصغيرة السن التى كان أبوه قد اشتراها من سوق الخيول ودفع مبلغا كبيرا من المال من أجل شرائها .

وكانت الخيول طيعة سهلة الانقياد للفرسان ، على الرغم من أنها كلها كانت صغيرة السن ، ولم يكن قد وضع على ظهر أى حصان منها سرج ، ولم يكن قد وضع فى فم أى حصان لجام ، ولم يكن قد امتطى ظهر أى حصان منها أى فارس من الفرسان .

كانت الخيول طيعة سهلة الانقياد فيما عدا حصان واحد ، لم يستطع أى فارس أن يمتطيه ليمشى به الحصان خطوة واحدة دون أن يجمح ذلك الحصان ويلقى براكبه فوق الأرض. وحاول الملك فيليب نفسه أن يروض ذلك الحصان الجامح ، ولم يستطع إلى ترويضه سبيلا مما أغضب الملك فيليب غضبا شديدا ، وأرغى وأزبد ، ولعن الحصان وبائع الحصان وهو يقول بصوت عال : " هذا هو أغلى حصان فى المجموعة كلها .

لقد دفعت ثلاث عشرة وزنة من الذهب الخالص . خذوه إلى السوق ، واسترجعوا من التاجر الذهب الذى دفعته ثمنا لهذا الحصان اللعين ! "

وكان الإسكندر يرى ويسمع ، وعندئذ اندفع داخلا إلى حلبة تدريب الخيول ، وقال لأبيه بحماس شديد : " لا . لا . لا تبع هذا الحصان الجميل القوى الذى اسمه (بوسيفالس Bucephallus) إنه قوى وجميل وأنا أحبه" .

فقال الملك فيليب : " وما هى فائدة حصان لا يركبه أحد ؟ " قال الإسكندر : " إنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معه " وقال فيليب : " لقد تعاملت معه بنفسى ولم أستطع ترويضه " .

فقال الإسكندر : " أنا أستطيع ترويضه يا جلالة الملك " .

قال فيليب : " وإن لم تستطع ترويضه ؟ " فقال الإسكندر : " أدفع ثمنه كاملا لك من مدخراتى يا جلالة الملك " . وقال الملك فيليب : " حسنا . أنا أوافق على أن تجرب بنفسك" .

ماذا حدث ؟ وكيف حدث هذا الذى حدث ؟ أمام أنظار الملك المقدونى فيليب، وأمام أنظار مجموعة كبيرة من أمهر فرسان جيشه ، تقدم الأمير الصغير نحو الحصان وهم يرقبونه بكثير من الشغف وحب الاستطلاع والخوف على الأمير الصغير أن يسقط عن ظهر هذا الحصان المشاكس الذى لم يروضه أحد من قبل ، ولم يستطع ترويضه أحد حتى تلك اللحظة المفعمة بالترقب وحب الاستطلاع والإثارة والخوف على الأمير الذى ينتظره عرش أبيه ، واقترب الإسكندر ، ابن الأربعة عشر عاما من الحصان ، وأمسك باللجام فى يده وهو مترجل على قدميه ، وأدار وجه الحصان إلى عكس الاتجاه الذى كان يقف فيه الحصان بحيث أصبحت أشعة الشمس الساطعة وراء الحصان بعد أن كانت أشعة الشمس أمامه ، وربت بكفه على رأس الحصان فى حنو بالغ ، وألقمه بضع قطع من السكر ، ثم اعتلى ظهر الحصان الهادئ المطيع ، وهز ساقيه برفق على جانبى الحصان ، وتقدم الحصان إلى الأمام بخطوات بطيئة لم تلبث أن ازدادت سرعتها بالتدريج ، وجرى الحصان بعد ذلك بسرعة كبيرة جدا كما تجرى الخيول المدربة أكمل وأتم تدريب . والذهول والسرور يمتلكان قلب الملك فيليب وقلوب فرسان الملك فيليب .

ذلك هو ما حدث . وكيفية حدوث ذلك والسبب فى حدوثه فى غاية البساطة وفى غاية الأهمية فى آن واحد . لقد لاحظ الإسكندر أن الفرسان بعد أن أخرجوا الحصان " بوسيفالس " من حظيرة الجياد كانت أشعة الشمس فى مواجهة الحصان. وجرت المحاولات الأولى لركوب الحصان وأشعة الشمس فى مواجهته . ولاحظ الإسكندر أن أشعة الشمس والظلال التى تلقيها على الأرض ويراها الحصان ربما كانت السبب فى جموح الحصان الذى زادته قوته وفتوته جموحا على جموح فاستعصى على الفرسان أن يمتطى صهوته ويستقر عليها منهم أى فارس . ولم يستطع أبوه ذلك أيضا . وبعد أن أتيحت للإسكندر هذه الملاحظة البسيطة

قرر أن يجرب الحصان بعد تغيير اتجاه وجه الحصان بالنسبة إلى أشعة الشمس ونجحت التجربة ، وكسب الإسكندر إعجاب الجميع ، وتقرر عدم بيع الحصان .

وإن دل ذلك الموقف على شيء فهو يدل على أهمية قوة الملاحظة التى يهبها الله لبعض البشر لتكون أهم أسباب نبوغهم وتفوقهم .

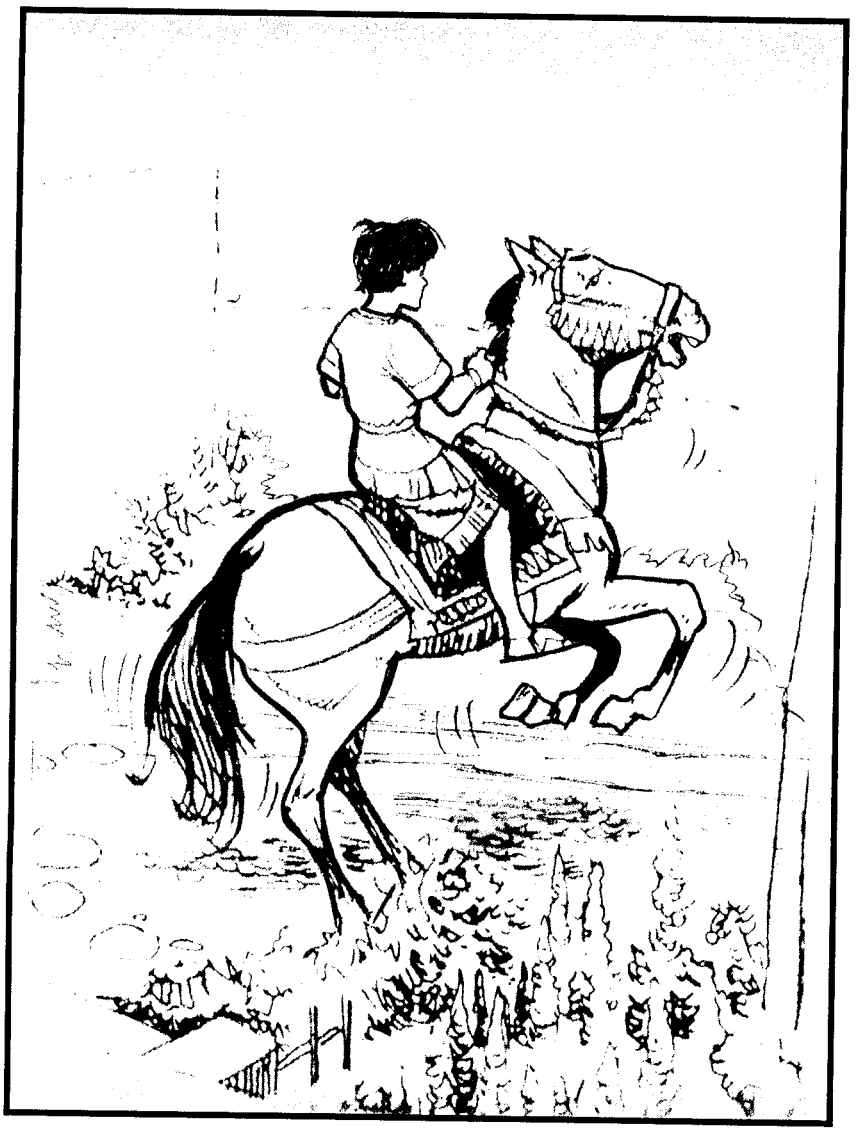

" .. واعتلى الإسكندر ظهر الحصان "بوسيفالس" ، وهز ساقيه برفق على جانبى الحصان ، وتقدم الحصان بخطوات بطيئة لم تلبث أن ازدادت سرعتها بالتدريج"

إن اكتشاف أرشميدس لقانون الطفو إنما كان وليد ملاحظة عابرة لانسكاب الماء من برميل الاستحمام الممتلئ إلى حافته بالماء ، عندما نزل أرشميدس فيه بجسمه.

وكان اكتشاف إسحاق نيوتن لقوانين الجاذبية الأرضية وليد ملاحظة عابرة لسقوط تفاحة من الشجرة لتستقر التفاحة فوق الأرض .

وتساءل نيوتن لماذا سقطت التفاحة إلى أسفل نحو الأرض ولم تتحرك إلى أعلى أو ذات اليمين أو ذات اليسار ؟!

وإذا كانت ملاحظة كل من أرشميدس أو نيوتن أو غيرهما من العلماء ممن قادتهم " دقة الملاحظة " إلى اكتشافات علمية كبيرة باهرة ذات أهمية فى مجال العلوم الطبيعية ، فلقد كانت ملاحظة الإسكندر تتصل بالمجال العسكرى الذى تفتحت عليه عيناه فى قصر أبيه فى مدينة " بيلا " عاصمة مملكة مقدونيا .

من الناس من لا يكاد يلاحظ شيئا حتى الأمور الواضحة ، ومن الناس من هو متوسط القدرة على الملاحظة ، ومن الناس من هو فائق القدرة على الملاحظة . والقدرة الفائقة على الملاحظة هبة عظيمة من الله - سبحانه وتعالى - إلى من يشاء من الناس .

وفى مجال العلوم الطبيعية تم اعتماد " الملاحظة Observation " باعتبار أنها أهم مراحل الحصول على الحقائق العلمية Scientific Facts تليها مرحلة "التجربة Experiment" تليها مرحلة استخلاص " النتائج Results " .

وفى المجال العسكرى تعتبر الملاحظة والقدرة الفائقة على الملاحظة من أهم مميزات القادة العسكريين خصوصا عند الاشتباك مع العدو واحتدام المعارك والتحام الجيوش .

ولقد كانت ملاحظة خالد بن الوليد انسحاب رماة السهام المسلمين من فوق جبل أحد - وهم الذين كانوا يوفرون الحماية لمؤخرة جيش المسلمين - كفيلة أن ينتهز خالد بن الوليد الفرصة ويهاجم بمجموعة فرسان مكة تحت قيادته مؤخرة جيش المسلمين من ذات المكان الذى انسحب منه رماة السهام المسلمون ، على الرغم من أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد أوصاهم ألا يتركوا

مكانهم أبدا قبل أن يأمرهم بذلك ، ولكنهم ظنوا أن المعركة كانت قد انتهت ، وانتصر المسلمون فتركوا أماكنهم فوق جبل أحد للمشاركة فى جمع الغنائم ، ولاحظ خالد بن الوليد ذلك ، فاغتنم الفرصة ، وهاجم مؤخرة المسلمين ، وتحول انتصار المسلمين فى تلك المعركة إلى هزيمة بسبب قوة الملاحظة لقائد عربى هو خالد بن الوليد . أثبتت معارك كثيرة فيما بعد مدى كفاءته فى قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات ، ولا ريب فى أن الله قد حباه قدرة فائقة على الملاحظة كانت أهم مقومات قدرته على قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات .

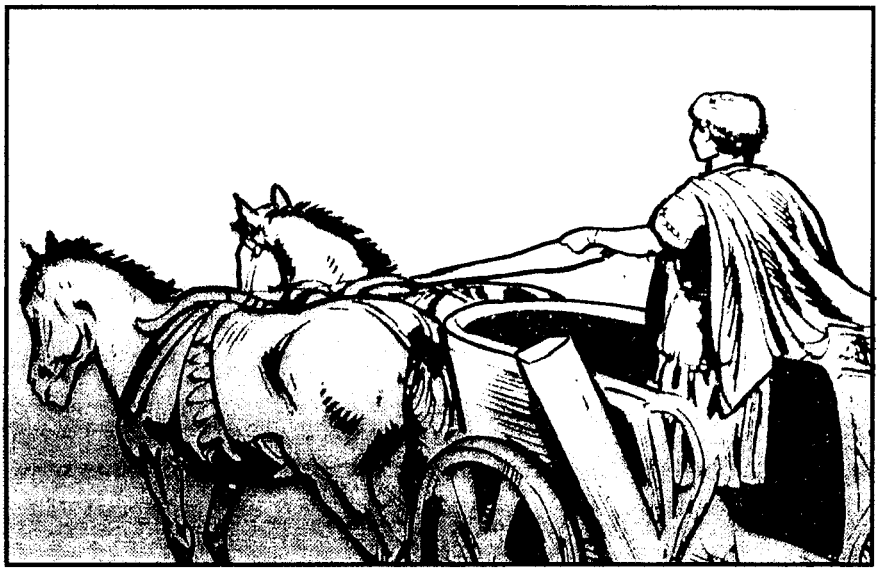

ولقد كان الإسكندر الأكبر أيضا منذ نعومة أظافره واحدا من القادة العسكريين الذين حباهم الله قدرة فائقة على الملاحظة التى تجلت منذ صباه ، إذ استطاع - اعتمادا على قوة الملاحظة - أن يروض حصانا لم يستطع أبوه ، ولم يستطع فرسان أبيه إلى ترويضه سبيلا . الحصان بوسيفالس Bucephalus ، ومن الغريب أن هذا الحصان بوسيفالس قد أصبح حصان الإسكندر الأكبر ، خاض فوق صهوته كل معاركه الظافرة . وعندما أصبح الجواد بوسيفالس طاعنا فى السن و مريضا ، لم يتخل عنه الإسكندر ، ولم يهمل شأنه ، بل كان يعنى به كل العناية ؛ لأنه كان يتفاءل به ، وكان يصر أن يركب الحصان بوسيفالس العجوز الضعيف

فى بدء التحرك لأى معركة يخوضها فى البلاد الأسيوية ، ثم ينزل عنه ويعهد برعايته والعناية به إلى السائس الخاص به ، ثم يمتطى الإسكندر الأكبر صهوة جواد آخر .

وفى النهاية ، مات الحصان بوسيفالس ، الحصان المفضل الأثير الذى كان يتفاءل به الإسكندر الأكبر فى بلاد البنجاب شمالى الهند بعد ستة عشر عاما من خروج الإسكندر من " بيلا " عاصمة مقدونيا ، وحزن الإسكندر الأكبر لموت حصانه الأثير حزنا شديدا .

وأنشأ فى المكان الذى مات فيه الحصان مدينة أطلق عليها اسم الحصان ، أى أنه أطلق عليها اسم " مدينة بوسيفالس " وهى لا تزال موجودة حتى الآن فى مقاطعة كشمير التى كان الإسكندر الأكبر قد ضمها إلى إمبراطوريته العالمية فوق صهوة الجواد بوسيفالس الذى كان الإسكندر الأكبر أول من امتطاه وآخر من امتطاه .